عرقسوس

مروه جمال الدين

لا يوجد في العالم ما يُنغص حاله مثل تلك الضوضاء اللعين، خاصة إذا كانت ممتزجة بحرارة خانقة.

زفر بغضب بعد أن ركل إطارات سيارته بكل غيظ، هو الآن عالق بإحدى البقع الصاخبة على طريق محافظة القليوبية، السيارة الفارهة بدت كخردة، خاصة بعد أن فقدت إطارين، حل رابطة عنقه وخلع سترته ثم أخرج لفافة من التبغ أحرقها بحنق.

زامور السيارات لا ينقطع، وسباب المارة أصبح معزوفة اليوم وكل يوم، رائحة ثمار الجوافة التالفة اخترقت مسامه، والذباب يحسبها وليمة لا يتوانى عن الانقضاض عليها من آن لآخر.. عبث مرة أخرى بهاتفه الجوال في متابعة لمنقذه الذي تأخر ثم ألقى الهاتف بعبث داخل سيارته؛ فالزحام آفة تفشت دون رادع، صوت مجلجل أثار انتباهه، قرقعة لها وقع خاص داخل نفسه ونغمة غائبة عن عالمه منذ زمن.. بائع العرقسوس!

ابتسامة هادئة علت ثغره، فالصوت يحمل بصمة من زمن ولى، ماضٍ جميل دائما ما يأخذه الحنين إليه، ذكرى بيت أجداده حين كان يبدو العالم أكثر نضارة. يتذكر جده ويتذكر معطفه الصوفي الثقيل وقبعته المربعة من نفس الخامة، عويناته السميكة وصوته الأجش وهو يزعق طالبا وسيلة تدفئته الخاصة جدا (وابور الجاز)..

الكتلة الخشبية العالية بوسائدها القاسية ونسيجها المميز.. كم يشتاق للتمدد على تلك الأريكة الآن متوسدا فخذي جدته مستمتعا برائحة البطاطا الساخنة مع تلك الخلفية الموسيقية الهادئة المنبعثة من المذياع

obeikan.com

القديم الذي لم يكن يعرف سوى صوت واحد فقط: محمد عبد المطلب..
يوم الجمعة كان احتفالا خاصا بحد ذاته، رائحة البيض المقلي المنبعثة من مطبخ جدته والطعمية الساخنة التي يبتاعها جده بالسمسم كما يحب، والخبز يبدو كبيرا دائريا ذهبيا كضوء الشمس.. وقتها كان يتلذذ بالأطعمة دون حسابات وأفكار عن الكوليسترول وزيوت القلي.. أسعد أوقاته كانت تلك التي يتشبث فيها بجلباب جدته الطويل من أجل نزهة أسبوعية للسوق، معها كان يتجول بسعادة غير عابئ بالزحام، وكلما شعر بالتعب كان كل ما عليه فعله هو التمسح بملابسها كقطة، فتقوم بحمله على كتفيها دون عناء، تتجول بحقيبتها البلاستيكية، تفرز كل أنواع الخضراوات من أجل الأفضل، وبعد أن يتمكن العرق من بشرتها المجعدة وتتهدج أنفاسها رغما عنها تبتسم له في حنو يتذكر معه شفتيها الرفيعتين المحاطتين بتلك الخيوط الدقيقة على زوايتيهما وعينيها بلون الزيتون الأخضر الذي ورثه عنها، ونبرتها الحانية وهي تسأله عن طلبه المفضل، قرقعة مميزة تلك التي يصدرها هذا البائع العجوز معلنا عن مشروبه المثلج، تقذف العجوز بعملتين من فئة العشرة قروش بيد البائع والنتيجة كوبان ممتلئان بسائل أسود اللون ورغوة عالية كانت هي الأفضل على الإطلاق. ابتسم ساخرا. وقتها لم يكن يهتم أحد بمصدر المياه، أم ربما القلق بشأن الألوان الصناعية ونظافة الكوب..

فقط هو استمتاع لحظي بالارتواء، تنهد بعمق وتوجه بعدها بإصرار للبائع في شوق لتجربة مشروبه المخمر، كان رجلا في عقده السادس، هزيل الجسد، رث الهيئة، له شارب ولحية غير مشذبتين، ابتسامته تكشف عن أسنان قاربت على اللون البني وأصابع تمكنت منها القذارة، ابتسم باقتضاب ثم ابتلع غصة حلقه متابعا: عفوا.. أريد كوبا من البلاستيك!